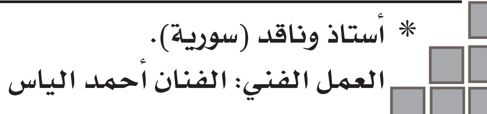


التناص الديني في شعر البياتي

د.أحمد طعمة حلبي *

يشكل الموروث الديني مصدراً مهماً، من المصادر التي استفاد منها الشعراء المعاصرون، في مد تجاربهم الشعرية بنسغ الحياة، وإعطائها صفة الديمومة والبقاء، وإكسابها قوة وفاعلية، وذلك لما يشكله الدين من حضور قوي، لدى عامة الناس، ولما يتمتع به من قوة تأثيرية عظيمة، هذا بالإضافة إلى كون الدين يمد الشعراء بنماذج أدبية رائعة ربما لا يجدونها في مصادر أخرى.



* أستاذ وناقد (سورية).

العمل الفني: الفنان أحمد الياس

أ-القرآن الكريم:

يتميز القرآن الكريم، من بين معظم المصادر الدينية، بحضور واسع وقوي، في الشعر العربي المعاصر عامة، وشعر البياتي خاصة، وذلك لما تتميز به اللغة القرآنية من إشعاع وتجدد، ولما فيها من طاقات إبداعية، تصل بين الشاعر والمتلقي، بحيث تستطيع التأثير في المتلقي، بشكل مباشر. يضاف إلى ذلك قابليتها المستمرة لإعادة التشكيل والصياغة، من جديد، بحيث يستطيع عدة شعراء أن يستثمروا الآية الواحدة، من خلال إسقاط مغزاها، أو شكلها، على أزماتهم الخاصة، لتعبر عن تجاربهم الفردية، من دون أن يلتزموا صيغة واحدة. ويغطي التناص القرآني في شعر البياتي مساحة واسعة، فقد وجد البياتي في القرآن الكريم نهراً متدفقاً لا يتوقف، يثري من خلاله تجربته الشعرية، وينهل منه متى شاء ومتى أراد.

وتتنوع استلهامات البياتي للقرآن الكريم، فهو تارة يستوحي مضمون الآية، أو فكرتها الأساسية، وتارة يستدعي بعض المفردات، والتراكيب القرآنية، وتارة أخرى يشير إلى حوادث، أو شخصيات تحدث عنها القرآن الكريم. وأولى توظيفات النص القرآني، لدى البياتي، نجدها في قصيدته «الموت في الحب» حيث يقول: [1]

أيتها العذراء

هزي بجذع النخلة الفرعاء

تساقط الأشياء

تنفجر الشموس والأقمار

يكتسح الطوفان هذا العار

نولد في مدريد

تحت سماء عالم جديد.

لقد استحضر البياتي في المقطع السابق الآية الكريمة: «وهزّي إليك بجذع النخلة، تساقط عليك رطباً جنيّاً»[2] مستغلاً مغزاها، الذي يوحي بحدوث المعجزات وخوارق العادات، وهو ما يصبو إليه البياتي أيضاً، لكن المعجزات التي يطلبها البياتي لا تتعلق لا بطعام، ولا بشراب، بل بالثورة التي تجتاح كالطوفان هذا العالم المتردي، وتغسل العار عن جبينه، وتستبدل بهذا الواقع السلبي واقعاً أكثر إشراقاً، يستطيع الإنسان من خلاله أن يحيا حياة كريمة، والتناص هنا مع الآية القرآنية واضح، يتجلى منذ القراءة الأولى، وذلك لا تكائه على صيغة قرآنية معروفة، كما أن السياق القرآني الغائب، يتوافق مع السياق الشعري الحاضر، في الإطار العام، وهو طلب المعجزات والخوارق.

و يستحضر البياتي في نص شعري واحد آيتين من القرآن مقتبسًا منهما بعض التراكيب، يقول في قصيدته «صورة للسهروردي في شبابه »[٣]

لو كان البحر

مداداً للكمات لصاح الشاعر: يا ربي نفد

البحر ومازلت على شاطئه أحبو، الشيب

علا رأسي وأنا

مازلت صبياً لم أبدأ بعد طوافي ورحيلي،

فإذا احترق الخيام

بنار الحب وأصبح في حان الأقدار حجاباً،

فإنا حول النار

فراش مازلت أحوم وأفني ليلي سكراً، أتأمل

وجه القمر

الفضي الأزرق في صحراء الحب يغيب..

نلمس في هذا النص صدى الآيتين الكريمتين، من سورة الكهف ومريم، على التوالي وهما قوله تعالى: «قل لّو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي، ولو جئنا بمثله مدداً»[٤] وقوله: «واشتعل الرأس شيباً»[٥]. لقد استغل البياتي هذين النصين القرآنيين، في تأكيده شدة معاناته، وطول انتظاره للكشف الإلهي المعرفي، الذي وصل إليه الخيام، والذي مازال هو ينتظره بفارغ الصبر. ويلاحظ أن عملية التناص مع الآيتين الكريمتين، قد تمت بعد أن أخذت الدلالة مساراً نفسياً خاصاً في نفس الشاعر. فقد فجر البياتي من النص القرآني الدلالة التي تتفق وسياقه الشعوري الخاص، أي إن التناص هنا قد تم من خط ثنائية الحضور والغياب، حضور الصيغة القرآنية وغياب دلالتها الأصلية.

ولقد أثبت البياتي قدرته على الفهم العميق للقرآن الكريم، وتذوقه الفني له، إذ إن توظيفه للآيات القرآنية واستحضارها في نصوصه الشعرية، غالباً ما يتمان من خلال امتصاص معنى الآية، ومن ثم إسقاطها على تجربته الخاصة، وثمة نص شعري يستوحيه البياتي، ويقوم بإعادة صياغته من جديد،بما يتلاءم وتجربته الشعرية الخاصة، ورؤيته المتميزة للأشياء، يقول في قصيدته «الجرادة الذهبية»(٦)

أزحت عن قبري أطباق الثرى، وكوم الحجار
كسا عظامي اللحم
وانتفخت بالدم
عروقي الميتة الزرقاء
مددت للشمس يدي، فاخضَّرت الأشجار.

لقد توجه البياتي إلى الآيات القرآنية التي تصور عملية خلق الإنسان «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ×ثم جعلناه نطفة في قرار مكين×ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»(٧)، مستغلاً إياها، في تصوير حالة الانبعاث: انبعاث عشتار/ عائشة / الثورة، مشبهاً الثوار بالميت، الذي يستيقظ من غفوته، ويزيح عن قبره التراب والحجارة، ويهب واقفاً ليبعث الخصب والحياة من جديد(٨).

ويستلهم البياتي النص القرآني، وهو قوله تعالى«وإن يونس لمن المرسلين × إذ أبق إلى الفلك المشحون ×فساهم فكان من المدحضين×فالتقمه الحوت وهو مليم×فلولا أنه كان من المسبحين ×للبث في بطنه إلى يوم يبعثون×فنبذناه بالعراء وهو سقيم»(٩)من خلال استحضار شخصية نبي الله يونس، الذي شاءت إرادة الله، أن يبتلعه الحوت، لفترة من الزمن، ثم يقذفه إلى اليابسة، يقول البياتي في قصيدته «روميات أبي فراس»:(١٠)

يونس لن يشق بطن الحوت
فالبحر جف، منذ أن أبحرت بي
وقلت لي: لا تكتبي
على رمال الشط ما أقول.

القصيدة تفصح عن حالة القلق المختلط باليأس، الذي أصاب البياتي بعد أن ألقت الغربة و النفي بظلالهما عليه، وقد وجد البياتي في معاناة أبي فراس، الذي كان ينتظر قدوم المخلص، صورة مطابقة لما هو عليه من النفي والغربة، وقد قاده هذا اليأس إلى

درجة عظيمة من الإحباط، دفعته إلى فقد الأمل، والرجاء من مجيء البشير، وهنا يلجأ البياتي إلى قصة يونس. لتعبر عن معاناته، وذلك بعد عكس فاعلية التوجه القرآني، وجعلها مضادة لفاعلية النص، فيونس لدى البياتي لا يخرج من بطن الحوت، كما في القرآن الكريم، وإنما يظل قابعاً في داخله، لا يخرج منه إطلاقاً.

ويستدعي البياتي شخصية أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بالمرض. فصبر ورضي بقضاء الله، ولم يلح في طلب الشفاء قال تعالى:« إنَّا وجدناه صَابِراً، نِّعم العَبد إنَّه أوَّاب » (١١)

ويذكر البياتي نبي الله أيوب في سياق حديثه عن حالة الضعف والهوان. التي وصل إليها العرب، والهزيمة التي لحقت بهم، إبان حرب حزيران عام ١٩٦٧، مؤكداً شدة عزمه، وصبره على تلك المصائب التي حلت بأمته، فجراحه صابرة متجلدة لا تتوجع، ولا تشتكي،كجراحات أيوب الصامدة، يقول في قصيدته «بكائية إلى شمس حزيران»: (١٢)

آه لا تطرد عن الجرح الذباب

فجراحي فم أيوب

وآلامي انتظار

ودم يطلب ثار.

ولا يكتفي البياتي بمحاولة امتصاص معاني الآيات القرآنية، واستيحائها، أو الإشارة إليها، كما رأينا من قبل، بل يتعدى ذلك إلى اقتباس بعض الصيغ»، والتراكيب القرآنية بحرفيتها، ووضعها في سياقه الشعري الخاص، يقول في قصيدته: «الموت»:(١٣)

الثعلب العجوز

الملتحي بالورق الأصفر والرموز

المرتدي عباءة الليل، وفوق رأسه طاقية الإخفاء

يذل من يشاء

يعز من يشاء».

فهو هنا يقتبس من الآية القرآنية «قل اللَّهُمَّ مَالكَ المُلكَ، تُؤتِي المُلك من تَشَاءُ وتنتزع المُلكَ مِمَن تشاء، وتُعِزُّ من تَشَاء، وتذلُّ من تَشَاء » (١٤)

إن النص القرآني يتحدث عن عظمة الله، وقدرته على التصرف في أمور الناس، وقد استفاد البياتي من مضمون هذه الآية، في تأكيد قوة الموت وجبروته، حيث هو لا يغادر أحداً، ويستوي أمام حقيقته الكبير الصغير، والملك والسوقة والغني والفقير.. إن عملية التناص هنا ينطبق عليها ما قلناه سابقاً، من أن بعض أشكال التناص عند البياتي تتم بين ثنائية الحضور، والغياب، حضور الصيغة

القرآنية، وغياب دلالتها الأولى، فالبياتي يقتبس النص القرآني، ولكنه يستخدمه في مجال آخر، غير مجاله الأول.

وهكذا تعددت أشكال تعامل البياتي مع النص القرآني، واتخذت صوراً عدة، ليست في حقيقتها إلا تفاعلات خلاقة، بين النص القرآني وتجربة البياتي الشعرية، هدفها إغناء النص الشعري، وتقوية وسائل التعبير والتوصيل، وإثراء تجربة البياتي الشعرية.

ب- السيرة النبوية:

تشير تداخلات البياتي مع أحداث السيرة النبوية، وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم إلى فهم عميق، ونظرة ثاقبة لتلك الأحداث، وتلك الأقوال، وهذا ما يدفعنا إلى القول: إن قراءة البياتي لتلك السيرة، لم تكن قراءة تقليدية عابرة، بل كانت قراءة واعية سليمة، جعلت من أحداث تلك السيرة أصواتاً حية نابضة في الضمائر، بشكل دائم.

وقد وصل البياتي إلى حالة من الشعور، جعلته يحس بالتوحد النفسي بينه وبين الأنبياء، مما دفعه إلى استحضار بعض أحداث السيرة النبوية مسقطاً إياها على حياته هو، اعتقاداً منه، بأن الشاعر والنبي كليهما يحمل رسالة الهداية والخلاص والخير، فها هو يشير إلى قصة شق صدر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عندما كان في السنة الثانية من عمره [١٥]، ويذكرها في سياق بحثه عن العنقاء / الثورة، يقول البياتي في قصيدته «العنقاء». [١٦]

ودارت الأفلاك
ولم أزل أبحث في تهامة
عن تلكم الحمامة
وفي مساء، زارني ملاك
ووضع القمر
على جبيني، شق صدري، انتزع الفؤاد
أخرج منه حبة السواد
وقال لي: إياك فالعنقاء
تكبر إن تصاد.

ينفتح النص الشعري هنا على النص القديم، ليتحدث من خلاله بلغة شعرية جديدة، عن قضية مهمة، أرقت البياتي طوال حياته، حيث يشير البياتي - من خلال تناصه مع حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم - إلى أن القلب الذي كان يخفق بانتظار عائشة / العنقاء قد انتزع منه، فلم تعد لديه قدرة على طلب عائشة /العنقاء/ الانبعاث. وهذا يعني تلاشي الأمل بانبعاث العنقاء/ عائشة، ويؤكد النص

اقتران الحب عند البياتي بالثورة، بالحرية، بخلاص الإنسان من الظلم. فالحب عنده ليس مفهوماً مجرداً، وليس هو مرتبطاً بحب النساء فقط، وإنما تحقق الحب عنده يعني تحقق الثورة / الخلاص...، فظهور عائشة / العنقاء / الانبعاث عنده يعني وجود الحب وتحققه، وغياب عائشة /العنقاء/ الانبعاث يعني غياب الحب، وهذا ما أكده من خلال قوله «انتزع الفؤاد»، فخروج الفؤاد منه يعني موت الفؤاد/ الحب، وهو المحصلة لبحثه الذي لا ينتهي بنتيجة عن الحمامة/العنقاء. ويؤكد البياتي في «تجربته الشعرية» أن فهمه للحب يختلف عن فهم غيره من الشعراء له، ففي أشعاره يظهر نوع آخر من الحب، هو حب الأم والأرض والأطفال والوطن والإنسان، ويتحول الحب عنده إلى حب جماعي، للخلاص الإنساني، والحب الجنسي عنده مرحلة أولية، يتخطاها الإنسان لتتجسد له في النهاية، حقيقته الإنسانية الشاملة قوة دينامية خالقة للأشياء[١٧].

ويستوحي البياتي، في قصيدته «النور يأتي من غرناطة» حادثة خروج النبي، صلى الله عليه وسلم، من مكة متجهاً إلى غار حراء، قبل البعثة للتنسك، يقول:[١٨]

أتكور طفلاً، كي أولد، في قطرات المطر المتساقط فوق
الصحراء العربية، لكن الريح الشرقية تلوي عنقي، فأعود
إلى غار حراء يتيماً، يخطفني نسر، يلقي بي تحت
سماء أخرى، أتكور ثانية، لكني لا أولد أيضاً[١٩].

ويلحظ المتلقي هنا أن السياق الشعري لهذه القصيدة يتساوق مع السياق القديم، ويماثله حيث يظهر التناص مع مشهد لجوء النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى غار حراء، وهو الشيء نفسه الذي فعله البياتي، الذي يغدو غار حراء بالنسبة إليه، المكان الذي تتم فيه عملية المخاض الشعري، ويتحقق فيه الإلهام .

لقد اتخذ البياتي من موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، وخروجه إلى غار حراء وسيلة يعبر من خلالها عما يكابده، ويعانيه من آلام في انتظار الذي يأتي ولا يأتي. ولا يكتفي البياتي بتداخلات مع أحداث السيرة النبوية، بل يتعدى ذلك إلى استلهام بعض الأقوال النبوية، وإسقاطها على الواقع المعاصر، إذ يستثمر قول النبي، صلى الله

عليه وسلم: «إنه لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر من الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم، لا محالة،..وإنه أعور وأن ربكم عز وجل ليس بأعور..»(٢٠) والبياتي هنا يوظف شخصية الدجال ليؤكد تفاهة هذا العالم الخاوي الموبوء، الذي يسيطر عليه المستبدون والطغاة. يقول البياتي في قصيدته «ديك الجن»:(٢١)

علامة الساعة أن يظهر هذا الأعور الدجال
مذنب، يجر خلف ضوئه الرجال
للموت بالمجان
في مدن الدخان.

يتبدى التناص هنا من خلال إسقاط الماضي على الواقع المعاصر، للتعبير عن خواء المجتمع من كل فعالية إيجابية، وسيطرة الطغاة. لقد جاء هذا النص الشعري «الحاضر» تماماً مع النص الديني «الغائب»، فقد امتاح البياتي من الحديث النبوي الشريف ما يتناسب ورؤيته الخاصة، وتشير عبارة «مذنب، يجر خلف ضوئه الرجال، الموت بالمجان» إلى مغزى عميق، ودلالة واسعة من خلال تبدي فعل الإغواء، الذي يقوم به الدجال.

وبعد أن استعرضنا بعض نماذج البياتي الشعرية، التي تفاعلت مع الموروث الديني.

نستنتج ما يلي:

١ــ كان استدعاء القرآن الكريم هو الغالب، مقارنة بالسيرة النبوية.

٢ــ نادراً ما كان البياتي يحافظ على الدلالة الأصلية للنصوص القرآنية أو النبوية التي يستحضرها، إذ إن معظم تلك الدلالات الأصلية للنصوص القرآنية أو النبوية، كانت تتخذ مساراً خاصاً لديه، وذلك بما يتناسب والموقف أو القضية التي تساق تلك النصوص من أجلها.

٣ــ برزت من خلال تفاعلات نصوص البياتي مع المصادر الدينية المتنوعة معاني: الحرية، والمبادئ، والثورة، والعذاب، والألم، واليأس.

لقد احتوى شعر البياتي نصوصاً دينية كثيرة ومتنوعة، اندفعت وتداخلت مع نصوصه الشعرية وسياقاتها المختلفة، مكونة نماذج متعددة من التناص الديني، أثرت الفكرة المطروحة، وعمقت الرؤية الشعرية، وأسهمت في تشكيل البناء الفني لشعر البياتي.■■

الحواشي

١- الديوان ٢/١٤٨.
٢- القرآن الكريم، سورة مريم، الآية:٢٥
٣- الديوان ٢/٤٢٥.
٤- القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية ١٠٩.
٥- القرآن الكريم، سورة مريم، الآية:٤.
٦- الديوان ٢/١٧٩
٧- القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآيات : من ١٢ - ١٤.
٨- لا يخفى على القارئ أن هذه القصيدة مهداة إلى اللاجئين، ينظر: البياتي، الديوان ٢/١٧.
٩- القرآن الكريم، سورة الصافات، الآيات: من ١٣٩ - ١٤٥.
١٠-الديوان ٢/١٦٨.
١١-القرآن الكريم، سورة ص، الآية:٤٤ .
١٢-الديوان ٢/ ١١١.
١٣-الديوان ٢/٨٣__٨٤.
١٤-القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية:٢٦.
١٥-ينظر: ابن هشام، «السيرة النبوية» تح. مصطفى السقا، وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١، ١٩٩٧/ ٢٠١-٢٠٢.
١٦-الديوان ٢/ ١٤١ __١٤٢.
١٧-ينظر:«تجربتي الشعرية»ص ٢٤__ ٢٥.
١٨-الديوان ٢/ ٤٠٣.
١٩-هذه القصيدة بنيت على أسلوب التدوير، وهو أسلوب عروضي، شاع في شعرنا المعاصر، ويقوم على أساس أن القصيدة برمتها وحدة موسيقية واحدة، حيث تتوالى التفعيلات، ولا تسمح بالوقوف، إلا في نهاية القصيدة، أو في نهاية أحد مقاطعها على الأقل.
٢٠-ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي «النهاية في الفتن والملاحم» خرج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٠ ،ص ٩٨.
٢١-الديوان ٢/١٥٨ .

المصادر والمراجع

المصادر
- البياتي عبد الو هاب: الديوان، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٩٠.

المراجع
- القرآن الكريم.
- البياتي عبد الوهاب تجربتي الشعرية، منشورات نزار قباني، بيروت، ط١،١٩٦٨.
- ابن الكثير. أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي: النهاية في الفتن والملاحم، خرج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠.
- ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢،١٩٩٧.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط٢،١٩٩٧.

